الضمـــــــير

بقلم الاستاذ محمد مهدى علام

أستاذ التربية والفلسفة بدار العلوم وقسم التخصص

الاستاذ مهدي علام من خيرة الشباب العلماء ، الذين جمعوا الى الثقافة العربية الثقافة الغربية ، وهو يعتبر أحد الاساتذة المجدين الذين تفخر بهم دار العلوم ؟ المحرر

خطر فى ذات يوم للقاضى (كورت ريت) الكندى أن يشرب الخمر ؛ فتجاوز الحد فى شربه، حتى عاد غير قادر على الوقوف على قدميه ، وخرج من الحانة وهو على هذه الحالة ؛ فلما عرفه رجال الشرطة نقلوه إلى بيته . وشاع الخبر فى المدينة ، وتناقلته الألسن ؛ وزادت فيه وجسمته وفقاً لأغراض البعض وميولهم ، فلما استوى القاضى (كورت ريت) فى اليوم التالى على منصة القضاء، وهم كاتب الجلسة بتلاوة أسماء المتنازعين والمتخاصمين أوقفه القاضى ، وأخبر الحاضرين بأنه يريد أولا محاكمة القاضى (كورت ريت) الذى وجدته الشرطة فى اليوم الماضى سكران على قارعة الطريق ، وفى الحال أخذ يخاطب نفسه قائلا: اسمك كورت ريت، وصناعتك قاض فى مدينة (وينيبج) الكندية ؛ حسن ! هذه أول مرة فى حياتك تسكر فيها ؛ ولكن نص القانون صريح ، لأنه يحرم السكر قطعياً ، والقانون يجب أن يسرى على كل إنسان بدون تطلع إلى مركزه وأهميته الاجتماعية ؛ غير أنى نظراً لماضيك الجيد الذى لا تشوبه شائبة حكمت عليك بغرامة قدرها عشرون دولاراً مع إيقاف التنفيذ ، وأملى ألا تعود إلى مثل هذا العمل الذى يحط من قدرك ، ويضيع هيبتك أمام الناس ، وإلا حكمت عليك بالسجن ؛ وبدفع هذه الغرامة أيضاً .

وبعد أن حكم هذا القاضى على نفسه بهذه الكيفية ، طلب إلى كاتب الجلسة أن ينادى الأسماء ، وجلس هادئا ساكنا للفصل فى قضايا المتنازعين (١).

ترى ما الذى حمل هذا القاضى على أن يفعل ما فعل ؟ إن هو إلا صوت الضمير يهمس فى أذن المرء لدى شروعه فى كل عمل ، ليقره عليه إن كان حسناً ، وليبغضه إليه إن كان قبيحاً ، أو يؤنبه من أجله إن كان قد وقع فعلا .

فالضمير إذن هو السراج الوهاج الذى منحه الله تعالى كل فرد لكى يضىء له سبيل الحياة ؛

(١) نقلا عن صحيفة مصرية صادرة فى العام الماضى بتصرف قليل فى الالفاظ .

أما السراج فهو كل إنسان ، وأما وهجه فيختلف باختلاف الناس : فمنهم من سراجه وهاج ، ومنهم من سراجه مضيء ، ومنهم من سراجه موهض ، ومنهم من سراجه مظلم لا نور فيه ؛ وبعبارة أخرى : منهم ذو النفس الراضية المرضية ، ومنهم ذوالنفس التي إن فاتها أن تحول بين صاحبها والقيام بعمل الشر ، فلن يفوتها أن تلومه على عمله ، وتسلقه بألسنة حداد ؛ ومنهم ذو النفس الأمارة بالسوء ، وذوالنفس المظلمة التي ليس فيها شعاع من أشعة الهدى ، ولا بريق من سراج الضمير .

ويتضمن الضمير أمرين : أولها إدراك الفرق بين الحق والباطل ، وثانيها الشعور بوجوب اتباع الأول وتجنب الثاني .

وللضمير ثلاث مراتب :

١ — فقد يصدر حكمه قبل الشروع في العمل ، كما إذا كنت تفكر في الانتفاع بمقدار من المال ، وكان عندك رغبتان : إحداهما للاتجار به ، والأخرى لاقراضه بالربا ، فإذا ضميرك يناديك : «وأحل الله البيع وحرم الربا» ، وهو في هذه الحالة يرشدك إلى الخير ويحذرك من الشر .

٢ — وقد يرتفع صوت الضمير في أثناء قيامك بالعمل فعلا ، وهو في هذه الحالة يؤيدك في اختيارك ويسدد خطاك ، إن كان العمل حقا ، ويعارضك ويقيم في سبيلك العقبات ، إن كان العمل باطلا .

٣ — وربما جاء صوت الضمير بعد إنفاذ العمل ، وهنا تحس بسرور وابتهاج إذا علمت أن ضميرك قد أقرك على ما فعلت ، أما إذا لم يكن عملك الذي عملت موافقا الحكم الذي يصدره ضميرك : فانك تشعر بحزن وانقباض : تشعر بأنك قد امتهنت كرامتك ، وجرحت عزتك ، وأتيت أمراً إداً .

يتبين لنا مما تقدم أن حكم الضمير على عمل من الأعمال يستتبع الشعور بواجب من الواجبات لا تجوز مخالفته ؛ فالأعمال التي نحكم بأنها حق يجب علينا أن نعملها ، والأعمال التي نعلم بطلانها يجب علينا أن نتجنبها ، وإن نحن حدنا عن تنفيذ ذلك ، كنا في الحقيقة مقدمين على : انتحار خلقي ، وانتحار عقلي ؛ أما الأول : فلأننا نخالف الواجب الذي نشعر به ، ونصم آذاننا عن النداء الباطني الذي يحفزنا إلى ما فيه منفعتنا ؛ وأما الثاني : فلأننا نناقض أنفسنا باعتقادنا أمراً وعملنا نقيضه . وفي ذلك يقول ابن المقفع :

« عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى ، والهوى آفة العفاف ، وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون ، والتهاون آفة الدين ، وإقدامه على ما لا يدري أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل » (١) .

(١) الأدب الصغير ص ٥١ طبعة مدرسة محمد علي الصناعية .

سلطان الضمير : قلنا : إن سلطان الضمير يختلف باختلاف الناس : ذلك أننا قد نقوى سلطان الضمير علينا ، وقد نضعفه ، بمقدار خضوعنا لأوامره . فإذا خالفنا ما يمليه علينا مرة من المرات ، سهل علينا أن نخالفه ثانية فثالثة ، ولا سيما إذا كان لنا في المخالفة : جلب مسرة ، أو دفع ألم (ولو كان الحصول على تلك المسرة ، أو دفع ذلك الألم وقتيا) ، حتى تصبح تلك المخالفة أمراً عادياً ، وعندئذ يضعف سلطان الضمير الذي كان يوماً من الأيام قاهراً غلابا ، ولقد يؤول أمره إلى الموت ، وعند ذلك يصبح صاحبه ميتاً من الوجهة الأخلاقية ، وتخلف قوة البحث عن الحق في المرء قوة جديدة ، هي قوة البحث وراء اللذة من سبيل الشر ، عندئذ تتغلب على المرء الناحية الشريرة من نفسه ، تلك الناحية التي وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها : النفس الأمارة بالسوء .

ولا شك أن عمل الضمير بعد حدوث الفعل : أيسر من عمله قبل الحدوث ، أو في أثنائه ، لأن الظروف والأحوال التي كانت تتخيل قبل حدوث الفعل ، والتي كان الضمير يبني حكمه على تخيلها ، أصبحت الآن حقائق ملموسة ، إذ نحن نعلم الآن أن عملا خاصا قد تحقق . وإن يكن أمامنا باب ما يترتب عليه من النتائج مفتوحا — على أن عمل الضمير في هذه الحالة ليس من السهولة بالمقدار الذي تتصور ، فانه على الرغم من أن العمل قد وقع فعلا ، وأن مسألة احتمال وقوعه وعدم وقوعه ليست موضع نظر ، ليس عمل الضمير هنا عمل المؤرخ الذي ينظر إلى حادثة تقدمت ليقول فيها كلمته تحبيذاً أو طعنا .

إن حكم الضمير هنا متعلق بالحاضر ، ومنصرف عنه إلى المستقبل . وبيان هذا : أن ذلك العمل الماضي (أو تلك العزمة أو الارادة التي نفذت) إن كان قد فاز بتأييد حكم الضمير له ، فان الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى تقوية الميل والاستعداد عند ذلك الشخص لاتباع مثل ذلك العمل الذي أقره الضمير ، ولسلوك تلك الطريق التي حبذها ، وفي هذه الحالة تسود الطمأنينة نفس المرء ، ويعم الرضا قلبه ، وتلك هي الحالة التي وصفها المولى جل وعلا ، بأنها : النفس المطمئنة الراضية المرضية ، وإن كان العمل الذي انقضى قد باء بسخط الضمير وتقمته ، فان الاستعداد لهذا النوع من الأعمال يضعف ، ويقوى على أنقاضه — طبعا — ميل الى العمل في الاتجاه الذي يضاده : وفي هذه الحالة يحصل تأنيب الضمير والندم والتوبة ، وتلك هي الحالة التي وصفها العليم الحكيم بأنها : النفس اللوامة .

الضمير والارادة : وقبل أن نتكلم في الندم والتوبة نستكمل بحثنا في عمل الضمير بالقياس إلى الأعمال قبل الشروع فيها . ولقد تكلمنا فيما تقدم عن أعمال الانسان وحكم الضمير عليها سواء أكانت تلك الأعمال قبل الشروع فيها ، أم في أثناء إنفاذها ، أم بعد الفراغ منها ؛ ولكن أحكام الضمير ليست مقصورة على الأعمال ، بل هي تتناول حالات أخرى غير الأخلاق ، وإن لم تخرج إلى حيز الوجود ، تلك الحالات هي الارادات .

هبك كنت قد عقدت النية على أن تعطى لفقير يمت إليك بصلة قيمة من المال كانت ستصلك ربحاً لتجارة ، ولكن حدث ما من أجله كسدت تلك التجارة ، فلم تحصل على نقود ، ولم تستطع بناء على ذلك أن تمد يد المساعدة إلى ذلك المعوز ، كما كنت قد عزمت ؛ أو هبك كنت تريد أن تقامر بتلك القيمة ، ولكن عدم حصولك عليها حال بينك وبين ما تشتهى من المقامرة ، فما عمل الضمير فى هاتين الحالتين ؟ هنا يصدر الضمير حكمه على تينك الارادتين ولو لم تنفذا ، ولو لم يترتب عليهما نتائج : يصدر حكمه بالارتياح إلى الأولى ، والنفرة والاشمئزاز من الثانية .

وليس حكم الضمير فى هذه الحالات عديم القيمة ، بل هو حكم له أثر عظيم فى تكوين خلق المرء ، فانه حين يحبذ النية الأولى - ولو لم تبرز إلى حيز الوجود - يبذر البذور لتحبيذ كل ما من شأنه مساعدة الفقراء ومد يد المعونة إليهم ، وإنه حين يحتقر النية الثانية - ولو لم تظهر فى صورة فعلية كذلك - يغرس فى النفس احتقار كل رغبة تدعوه إلى المقامرة ، ومقت كل هوى يميل به إلى الميسر .

ومن ثم ندرك مرمى الحديث الشريف : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

الندم والتوبة : إذا عمل المرء عملا ثم فكر فيه بعد أن عمله ، فشعر بألم نفسانى لذلك العمل أو لما ترتب عليه من نتائج ، فذلك الألم النفسانى هو الندم أو تأنيب الضمير ، فان انتقل المرء خطوة بعد هذه ، بأن حمله ذلك التأنيب على إصلاح نفسه وتحاشى ذلك العمل وما شابهه فى المستقبل ، فقد أخذت التوبة تدب فى نفسه ، ويمكننا إذن أن نقول : إن الندم توبة لم يصحبها الأمل فى إمكان الاصلاح ، ولم تحلها العقيدة بالقدرة على أن يكون سلوك المرء فى المستقبل أفضل من سلوكه فى الماضى .

على أن الندم أحيانا قد لا يجدى إجداء عمليا من حيث الأمر الذى وقع ، والذى من أجله يندم النادم ، فاذا يجدى ندم القاتل بالنسبة للمقتول ؟ فأنت ترى أن ليس هنا سبيل إلى إصلاح الماضى ، ولكن هذا لا يمنع الجانى من أن يندم ، وأن يكون ندمه عميقاً عمقاً يتكافأ مع فداحة الخطيئة التى أخطأها . نعم لا يستطيع القاتل أن يعيد إلى القتيل حياته ، ولا أن يعوضه هو عن تلك الحياة شيئاً كائناً ما كان ، فهذا سبيل قد أوصد فى وجهه بابه تمام الايصاد . إذ سبق السيف العذل ، ولكن هذه الاستحالة نفسها قد تكون من أكبر الدواعى لشدة الألم ، وعمق الندم ، فاذا انبثق فى نفسه نور الهدى ، واشتعلت نار العزيمة عزيمة أن يغير من تلك النفس الشريرة ، وأن يعترف بحق الحياة لغيره ، وألا يسلك مسلكا من شأنه أن يوقعه ثانية فيما وقع فيه أولا ، فهو تائب من غير شك ، على شرط ألا يعود ، أو بالأحرى : على شرط ألا يكون فى نيته أن يعود ، وإلا كان هازلا مستهزئا . قال الله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون

السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » .

والسر في ذلك التشريع الحكيم : هو أن التوبة الصادقة التي تذهب بالخطيئة يجب أن تكون قبل الموت ، حتى يكون هناك متسع من الزمن يظهر فيه التائب استعداده لتحويل مجرى حياته الخاطئة ، ويحول فيه ذلك المجرى فعلا ، حتى يكون استعداده الأول قد استؤصل تماما ، فيكون غفران السيئة له عملا معقولا مبرراً . أما هؤلاء الذين يتوانون في التوبة ، ويصلون السيئة بالسيئة حتى يأخذهم الموت وهم لا يشعرون ، فليس لهم من الرحمة نصيب ؛ إذ لم يعد أمامهم وقت متسع لتغيير ما بأنفسهم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

والاعتراف بالذنب خطوة ضرورية للوصول إلى التوبة ، وإلا : فهم يتوب التائب إذا لم يعترف بأنه قد اقترف إثماً ؟ ولعل ذلك هو السبب في أن توبة كثير من الناس لا تبلغ أوجها ، ولا تؤتي ثمارها ، لأنهم في الحقيقة يتلكئون في اعترافهم بآثامهم ، وإن الاعتراف بغير توبة لأفضل من إعلان التوبة بغير اعتراف . يقول ابن المقفع : « الاعتراف يؤدي إلى التوبة ، والاصرار وعاء الذنوب » والحكمة الانكليزية تقول : « الاعتراف نصف الموقعة » (١) ، يقصدون الموقعة النفسية التي تنشب بين المرء ونفسه في محاولة إصلاحها .

ولقد يحدث الندم والتوبة حتى مع عدم تحقق الجريمة فعلا . حب شخصاً كان قد اعتزم أن يشهد شهادة الزور ليلقي بها متهما بريئا في أعماق السجون ، وهبه مرض يوم تأدية الشهادة فلم يستطع أن يؤديها ، ثم فكر في الأمر ، فأدرك خطورة الموقف ومقدار الأذى الذي كان سينزله بانسان بريء ، ومقدار النقمة التي كان سينزلها من الله تعالى بعمله هذا ، فحمد الله على ذلك المرض الذي عاقه عن القيام بذلك العمل الذميم ، وشكر ذلك الظرف الذي جعل شهادته غير ممكنة ، والذي نجاه من هوة سحيقة كان على وشك أن يرتطم فيها ؛ إذا انعقد بكل ذلك فأقام حول أفكاره سوراً منيعا يمنع سيء الرغبات أن تقترب إليها ، وألجم شهواته فكبح جماحها ، وأصبح لا يرحب بفكرة لا يقرها ضميره — إذا فعل كل ذلك فقد تاب ذلك الشخص وأناب .

إذا فهمت ذلك اتضح لك أن عين التوبة تتطلع إلى المستقبل ، يدفعها الأسف على ماضي ، ويجذبها الأمل في إصلاح ما تبقى ، وأن عين الندم ترنو بحسرة إلى ذلك الماضي الذي لم يعد في قدرة البشر تغييره ، لهذا كان المخطيء — وهو في حالة ندم فقط ، في حالة موت نفسي ؛ أما وهو في حالة توبة حقيقية كالتي وصفناها فانه يكون في حالة حياة نفسية عظيمة !

محمد مهدي علام

---

[1] CONFESSION IS HALF OF THE BATTLE